

الفصل: الرابع

## وحدة: تاريخ أوروبا في القرنين 19 و20

الأستاذة: محمد حبيدة

المحاضرة رقم: 7

السنة الجامعية

2021-2020

جامعة ابن طفيل	السنة الجامعية: 2021-2020
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية	وحدة: تاريخ أوروبا في القرنين 19 و20
شعبة التاريخ والحضارة	الأستاذ: محمد حبيدة
الفصل الرابع	المحاضرة رقم: 7

## السياسة الداخلية: مدونة نابوليون

في بداية القرن التاسع عشر، شكلت فرنسا مسرحا كبيرا للأحداث بالنسبة لأوروبا. وقد جسد نابوليون هذا المسرح الكبير، حيث منح لهذه الأحداث وجهها أوروبا. يقول فيكتور هوغو في خطاب بالأكاديمية الفرنسية عام 1841، أي بعد وفاة نابوليون بعشرين سنة:

"سيطر نابوليون على جبال الألب والبرانس، وكون دولة قوية في قلب أوروبا وجعلها كالحصن المنيع الحاضن لمناطق أوروبية عدة. كل شيء كان هائلا ورائعا في هذا الرجل لأنه كان فوق أوروبا كمنظر فوق المعتاد".

عقب سحقه للتمردات المعادية للثورة وسيطرته على شمال إيطاليا وهجمته على مصر، فرض نابوليون نفسه على فرنسا كأقوى رجل في البلاد، فاستطاع إزاحة كل الشخصيات السياسية والهيمنة على الحكم هيمنة تامة. على المستوى الداخلي، شرع في إصلاحات كبيرة ابتداءً من عام 1800. من أهمها:

إداريا، مركز السلطة بشدة، إذ عوّض المنتخبين في الأقاليم والجهات بموظفين تابعين للسلطة المركزية في باريس، ليفرضوا على الشعب الفرنسي قوانين صارمة من شأنها ضبط الأمور. كما أعاد تنظيم جهاز المالية العمومية فيما يتعلق بالضرائب، والخصوصية أيضا، خاصة الأبنك وعلاقتها ببنك فرنسا المركزي الذي أنشأه نابوليون عام 1800، والذي انطلق بقدر مالي كبير جدا بالقياس إلى هذه المرحلة (ثلاثين مليون فرنك) حيث صار من اختصاصه إصدار الأوراق البنكية. ومن جهة أخرى، أعاد تنظيم المحاكم بفرض ترتيبية ملزمة بين رجال القانون، وزيّ خاص بالقضاة والمحامين. ولذلك، يمكن القول إن الدولة المركزية في فرنسا، اليوم، مورثة عن دولة نابوليون.

صناعيا وعمرانيا، حفز الطبقة البورجوازية المنتصرة في الثورة الفرنسية على الاستثمار في الاختراعات التقنية القادمة من إنجلترا، وإنشاء المصانع، لاسيما مصانع الحديد والنسيج، وتطوير صناعة السفن، وتنشيط التجارة التي انتظمت في غرف تجارية ومحاكم للتجارة للفصل في الخلافات والنزاعات. ففي مدينة باريس وحدها، كانت غرفة التجارة قد سلّمت، في عهد نابوليون 30.000 من العقود التجارية (patentes). ومن جهة أخرى، اهتم نابوليون بتهيئة المدن الكبرى من حيث الإنارة والترصيف وتسمية الشوارع والأزقة، وتنظيم حركة السير والجولان. هذا بالإضافة إلى الاعتناء بالطرق التي تعد شريان الاقتصاد، إذ أنشأ مديرية للطرق والقناطر ضمت

440 مهندسا اشتغلوا تحت إمرة المهندس لويس ماتيو مُولي الذي "كان يضع أمام نابوليون ميزانية الأشغال الكبرى المتعلقة بالطرق الجديدة وإصلاح الطرقات القديمة والقناطر والقنوات الملاحية".

على مستوى المعرفة والتعليم والبحث العلمي، أسس عام 1808 "الوثائق الوطنية الفرنسية"، بعد حيازة قصر سوبيز بباريس وتخصيصه لإيواء الأرشيف، وأنشأ في نفس السنة "الجامعة الإمبراطورية" (université impériale)، التي تميزت بصرامة الأساتذة والإداريين وانضباط الطلاب، ليس فقط من حيث التكوين، بل أيضا على مستويات أخرى، مثل ضرورة ارتداء الزي الموحد، وإصدار العقوبات القاسية في حق الطلاب، والتي كانت تذهب إلى حد الحبس لمدة سنة كاملة. وعلى مستوى القاعدة، اهتم المسؤولون الفرنسيون، وفاءً لمبادئ الثورة الفرنسية، بالتعليم ومحو الأمية، خاصة في البوادي والمناطق النائية. هذا ما قام به فرانسوا بومرول، أحد الإداريين المحنكين الذين اعتمد عليهم نابوليون، إذ تعهد بإنشاء المدارس الابتدائية في كل مقاطعات البلاد. ومن جهة أخرى، شجع نابوليون التعليم الخصوصي لفائدة بوجوازية البلاد، لكنه في المقابل فرض على هذا التعليم ضرائب كبيرة وكثيرة.

ففي ظرف عشر سنوات، أي إلى حدود عام 1810، تغير وجه فرنسا تغيرا شاملا حتى أصبحت نموذجا يقتدى به في عدد من بلدان أوروبا الغربية، ليس فقط في مجالات الإدارة والقضاء والمالية والتعليم والعمران، بل أيضا في ميادين الثقافة والفنون، وذلك بتشجيع المسرح والموسيقى والرسم، وتقدير إبداعات الأدباء والشعراء، التي واصلت ما أنتجه فلاسفة الأنوار في القرن الثامن عشر. فالمسرح، مثلا، صار مدرسة حقيقية لتعلم المدنية، وإدماج عموم الناس في الأخلاقيات الجديدة التي أُنجبتها الطبقة البوجوازية.

ويبقى أهم إنجاز تركه نابوليون هو "المدونة المدنية" (le code civil des Français). وضعت هذه المدونة، التي شُرعت في 21 مارس 1804، قوانين واضحة ومحددة لتنظيم الحياة القانونية والفصل في النزاعات بين الأفراد والمؤسسات. وقد همت قانون الأشخاص، وقانون الأملاك، وقانون العلاقات بين الناس. وكلها قوانين خضعت للمحاكم من خلال رؤساء هذه المحاكم والقضاة والمحامين. واكتملت هذه المدونة بقوانين أخرى، مثل مدونة التجارة (1807). ففي هذه السنة، أصبحت المدونة المدنية تحمل اسم "مدونة نابوليون" (Le code Napoléon).

ومما يدل على أهمية هذه المدونة، ووعيا منه بأهميتها، ما قاله نابوليون في نهاية حياته، وهو في الأسر لدى البريطانيين بجزيرة سانت هيلين:

"المجد الحقيقي الذي حققته، لا يكمن في الأربعين معركة التي انتصرتُ فيها، لأن هذه الانتصارات ستمحوها هزيمة واتيرلو، وإنما فيما سيظل خالداً، ألا وهي مدونتي المدنيّة".

ما قاله نابوليون حصل بالفعل. لما توفي في 5 مايو 1821، "تلاشت ذكرى الإمبراطور الذي غزا أوروبا مخلّفاً مئات الآلاف من الضحايا" وفق تعبير جاك أوليفيي بودون، وبقيت أعماله. حتى البريطانيين اعترفوا بذلك. عقب وفاته، صرح لوي هودسون، حاكم جزيرة سانت هيلين:

"لقد كان أكبر عدو لإنجلترا، ولي أنا أيضاً، لكنني أغفر له كل شيء، إذ ما على المرء إلا أن يشعر بالحسرة على وفاة رجل عظيم مثله".